على هامش النقد

الأدب «المهموس» والأدب الصادق

للأستاذ سيد قطب

حكاية أن « الأدب تعبير عن الحياة » حكاية معروفة من معاد القول الحديث عنها . وإن كان تفسيرها وتطبيقها لا يزالان موضع اختلاف عند استعراض النماذج . والنموذج فى الفن أبلغ دائماً فى بيان المذهب من النظريات العامة .

وقد تحدث الأستاذ « محمد مندور » فى مقالات ثلاث بالثقافة عن « الشعر المهموس » ثم تحدث فى العدد الماضى عن « النثر المهموس » وأعاد قصة « الشعر المهموس »

وفى جميع هذه الكلمات كان مندفعاً لأن يثبت أن أدباء المهجر هم « شعراء اللغة العربية » وأن « بين شعرهم وشعر الكثير من شعراء مصر قرونا » وكذلك نثرهم الشعرى

وليس يسوءنى ولا يسوء أدباء مصر أن يكون الأمر كذلك حقيقة ، فالتعصب هنا لا محل له ؛ ولكن الذى يهمنى ويهم أدباء مصر ويهم الأدب فى ذاته ، أن « النماذج » التى جاء بها والدعوة التى يدعو بها إلى هذه النماذج هى توجيه مؤذٍ فى فهم الأدب وفهم الحياة !

وأنا أفهم مثلا أن يحب الأستاذ مندور أو سواه لوناً خاصاً من ألوان الأدب ، فتلك مسألة مزاج ؛ ولكن الذى لا أفهمه أن يصبح هذا اللون الواحد دون سواه هو الأدب الصحيح الراق المتقدم ، وأن يكون ما عداه من الألوان مرة « سخيفاً » كما يقول عن شاعر كبير معاصر ، وطوراً خطابياً كما يقول عن شاعر كبير قديم ... فذلك ضيق فى الإحساس ، يجوز أن يقنع به قارىء يتذوق ويلذ له لون واحد من الغذاء الروحى ؛ ولكنه لا يصلح لمن يتصدى للنقد والتوجيه

وما اللون المفضل الذى يدعو إليه الأستاذ ؟

من جميع النماذج التى اختارها حتى الآن — والنموذج كما قلت أكثر دلالة من الشرح العام — أستطيع أن أسمى هذا اللون باللون « الحِنِـنِّين » حسب تعبير أولاد البلد من القاهريين ! الذى تحس فيه « بالحِنِـنِّيَّة » أو بالهمس والوداعة الأليفة حسب تعبيره هو !

وهذا الأدب الحِنِـنِّين قد يكون فيه الصادق السليم ، وقد يكون فيه الكاذب المريض . ولكنه على كل حال لون واحد من ألوان الأدب ، يعبر عن مزاج واحد من الأمزجة ، فى حالة شعورية واحدة من حالات الشعور

فاذا نحن جعلنا همنا أن نهمس فقط ، وأن نكون وديعين أليفين فقط ، وأن تكون الحنية هى طابعنا فقط ؛ فأين نذهب بالأنماط التى لا تعد من حالات الشعور وحالات النفوس وحالات الأمزجة ، فى هذه الحياة الحافلة بشتى الأنماط ؟

يسمى الأستاذ شعر المتنبى شعراً خطابياً ، ويعنى أن المتنبى لا يهمس ولا يأتى إلينا تعبيره فى دعة وفى حنيَّة أو فى همس كما يقول مثلا ميخائيل نعيمة

أخى إن عاد بعد الحرب جندى لأوطانه
وألقى جسمه المنهوك فى أحضان خلانه
... إلى الآخر

وإن الأستاذ مندور ليقف معجباً أمام صورة هذا الجندى المنهوك الذى يلقى بجسمه فى أحضان خلانه ، وهى صورة وديعة منهوكة قد تكون جميلة فى مكانها ؛ ولكن أى خطأ ينتظرنا حين نطالب المتنبى العارم الطبع ، الصائل الرجولة ، بأن يحدثنا فى وداعة كوداعة ميخائيل نعيمة ؟

أنا لا أحاول (مؤقتاً) المفاضلة بين الطبيعتين ، ولكنى أحاول فقط أن أقول : إن الصدق هو الذى يجب أن ننظر إليه حين نقف أمام عمل الشاعر أو الفنان بوجه عام . وإن المتنبى لصادق أجمل الصدق ، وهو يجلجل ويصلصل فى شعوره وفى أدائه ، لأنه هو هكذا من الداخل . وتلك صورة لنفسه ولمزاجه ، وإنها لنفس صادقة ، وإنه لمزاج أصيل

يجب أن نوسع آفاقنا . ولا سيما حين نقف موقف النقاد — فلا نحكم مزاجنا الخاص ، الذى قد لا يكون أصدق الأمزجة ، بل الذى قد يكون ثمرة « عقدة نفسية » أو حادثة عارضة من حوادث حياتنا الشخصية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وإنه ليستلفت نظرى أن جميع النماذج التي استعرضها الأستاذ مندور هي من اللون الذى يشيع فيه الأسى المتهالك المنهوك . فهل أفهم أن هذه عناصر محببة إليه وحدها ، وأن الشاعر لا يكون شاعراً حتى تشيع هذه العناصر فى شعره ؟

أعرض هنا تعبيراً أفلت منه ، وله دلالة خاصة على هذا المزاج . فى قصيدة « لنسيب عريضة » ساق الحديث هكذا :

يانفس مالك والأنين ؟ تتألمين وتؤلمين ؟
عذبت قلبى بالحنين وكتمته . ماتقصدين ؟

« وها نحن منذ المقطوعة الأولى فى جو الشعر « فالنفس تئن » !

إذن كانت النغمة التى استرعت سمعه وجعلته يحس بأنه دخل فى جو الشعر هى أن « النفس تئن » . ولهذا دلالته ، وهى الدلالة التى تنطق بها جميع مختاراته حتى الآن . وهو « مزاج » خاص له أن يتذوق ما يحبه من الألوان ، ولكن ليس له أن يتولى مهمة النقد والتوجيه كما قدمت

وأريد أن أسأل : ألا ندخل فى جو الشعر إلا إذا سمعنا هذا الأنين ؟ و « الهمس » بالسرور والفرح والانطلاق ؟ ألا يكون شعراً على هذا الأساس ؟

إن الأستاذ مندور لم يقل هذا بالضبط ، ولكن النماذج التى جاء بها جميعاً تكاد تنطق فذلك إذن توجيه مؤذ ، يكاد الدافع إليه يكون دافعاً « مرضياً » وهو ما يدعو إلى الحذر الشديد !

* * *

ولا أحب أن أقف من الشعر المهموس والنثر المهموس موقف العداء المطلق كما وقف الأستاذ مندور من جميع ألوان الشعر الأخرى . وكذلك لا أريد (مؤقتاً) أن أفاضل بين هذا اللون وبين الألوان الأخرى .

ولكن هذا لا يمنعنى أن أقول إنه كان موفقاً فى اختيار بعض النماذج ، وغير موفق فى اختيار بعضها . فقصيدة « يا أخى » لميخائيل نعيمة وقصيدة « ترنيمة سرير » لنسيب عريضة يعدان نموذجاً طيباً لهذا اللون الذى يحبه . وأقول نموذجاً طيباً لهذا اللون بذلك القيد . ولكن ما عداها من مختاراته كان نماذج رديئة للشعر عامة ولهذا اللون من الشعر كذلك ، لا فى الأداء وحده ، ولكن فى حقيقة الشعور

والفرق بعيد والمسافة طويلة بين هذين النموذجين وبين سواهما . ولكن الذى يجمع بينها هو مجرد « الحنية » ومجرد الأسى المنهوك . ويهمنى أن أبرز هذا المعنى إبرازاً خاصاً ؛ فهو دليل عندى على هذه « الحالة الخاصة » التى أكاد أعزو إليها ولعه بهذا اللون ، فهذه الحالة هى التى تجعله يستجيد كل ما ينطوى على هذه العناصر جيدة ورديئة على السواء . وهذا ما يدعونى للشك العميق فى أن « مزاج » الأستاذ الخاص هو الذى يملى عليه آراءه لا ذوقه الفنى

إن المسألة ليست مسألة ضيق فى أفق الذوق الفنى فقط ، ولكنها « حالة مزاجية » خاصة تتحكم فى هذا الأفق الضيق بطبيعته . وأخشى أن تكون حادثة ما أو عدة حوادث كامنة فى ماضى الأستاذ مندور تتحكم فى نفسه دون شعور . وهذا ما يدعو إلى الحذر الشديد فى تقبل هذه الآراء !

وقصة « النثر المهموس » ؟ إنها كقصة « الشعر المهموس » . وأريد أن أقول للأستاذ مندور إن الفقرات الأخيرة من قطعة « يا أمى » لأمين مشرق هى فقرات طيبة فى إحساسها وفى أدائها ، ولكن الفقرات الأولى « تقليدية » من أدب « القوالب » المحفوظة . وكناقد كان يستطيع أن يفرق بين هذا وذاك ؛ ولكنه كصاحب مزاج خاص لم يستطع التفرقة . ففيها جميعاً تشيع روح « الأسى المنهوك » وهذا يكفى !

* * *

وإذ انتهيت إلى هذا الحد أحب أن أعرض على الأستاذ مندور وعلى القراء ألواناً من الشعور البسيط الأليف الذى لا نفقده بساطته وألفته قوته وسلامته وصحته . وهو من عمل أدباء مصريين من أولئك المتخلفين قروناً فى نظره

وهذا النموذج الأول لأديب شاب من رثاء لأمه : (وقد اخترتها لمناسبة قطعة أمين مشرق) :

« من نحن اليوم يا أماه ؟ بل ما نحن اليوم عند الناس وعند أنفسنا ؟ ما عنواننا الذى نحمله فى الحياة ونعرف به ؟

« إننا لم نعد بعد أسرة ، ولم يعد الناس حين يتحدثون عنا يقولون : هذه أسرة فلان . بل أصبحوا يقولون : هذا فلان . وهذا أخوه . وهاتان أختاه !

« اليوم فقط مات أبى ؛ واليوم فقط أصبحنا شتيتاً منثوراً . وإنى لأضم اليوم إلى صدرى ابنكما وابنتيكما . أضمهم بشدة لأستوثق من الوحدة ، وأشعرهم بالرعاية . ولكن هيهات هيهات . فأنا وهم بعدك أيتام يا أماه !

« لقد شعرت اليوم فقط بثقل العبء . وعلمت أننى لم أكن أنهض به وحدى ، وأننى كنت أرعاهم وأرعاكِ معهم . لأننى قوىٌّ بك . أما اليوم فالعبء فادح ، والحمل ثقيل ، وأنا وحدى ضعيف هزيل !

« إن الشوط لطويل . وإنى لوحدى فى الطريق ، وأخى وحده كذلك ، وأختاى وحدهما أيضاً ، وإن كنا نقطعه جميعا !

والعش الذى خلّفته ستظل فراخه زغباً مهما امتد بها الزمن ، لأن يدك الرفيقة لا تمسح ريشها وتباركه ، وكفك الناعمة لا تدرب أجنحتها على التحليق ، وروحك الحنون لا تكلؤها فى أجواز الفضاء !

نحن اليوم غرباء يا أماه

لقد كنا — وأنت معنا — نستشعر فى القاهرة معنى الغربة فى بعض اللحظات ، وكنا نشبه أنفسنا بالشجرة التى نقلت من تربتها ، والتى ينبغى لها أن تكثر من فروعها لتتق الاندثار فى غربتها !

أما نحن اليوم فغرباء فى الحياة كلها . نحن الأفرع القليلة ذوى غصنها ، بعد اغترابها من تربتها . وهيهات أن تثبت أغصان فى التربة الغريبة . . . بلا أم !

« أماه . . .

من ذا الذى يقص على أقاصيص طفولتى كأنها حادث الأمس القريب ، ويصور لى أيامى الأولى فيعيد إليها الحياة ، ويبعثها كرة أخرى فى الوجود ؟

لقد كنت تصوريننى لنفسى كأنها نسيج فريد منذ ما كنت فى المهد صبياً ! وكنت تحدثيننى عن آمالك التى شهد مولدها مولدى ، فينسرب فى خاطرى أننى عظيم ، وأننى مطالب بتكاليف هذه العظمة التى هى من نسيج خيالك ووحى جنانك ! فمن ذا يوسوس إلى بعد اليوم بهذه الخيالات الساحرة ؟ ومن ذا يوحى إلى بعد اليوم بتلك الحوافز القاهرة ؟

لمن أصعد درج الحياة بعدك يا أماه ؟ ومن الذى يفرح بى ويفرح لى وأنا أصعد الدرج ، ويمتلئ زهواً وإعجاباً وأنا فى طريق إلى القمة ؟

قد يفرح لى الكثيرون . وقد يحبنى الكثيرون . ولكن فرحك أنت فريد ، لأنه فرح الزارع الماهر يرى ثمرة غرسه وجهده ... وحبك أنت عجيب ، لأنه حب مزدوج : حبك لى ، وحب نفسك فى نفسى ... !

أماه . . .

عندى لك أنباء كثيرة . كثيرة جداً ومتزاحمة . تواكبت جميعها فى خاطرى على قصر المهد بغيبتك . وإنه ليخيَّل إلى فى لحظات ذاهلة : أننى أترقب عودتك لأسمعك هذه الأنباء ، وأحدثك بما جد فى غيبتك من أحداث ؛ وأنك ستسرين ببعضها وتهتمين ببعضها .. وهى مدخرة لك فى نفسى يا أماه . ولن تدب فيها إلا حين أقصها على سمعك . . . ولكن هيهات فسيدركها الفناء ، وستغدو إلى العدم المطلق ، لأنك لن تنصتى إليها مرة أخرى . . .

« أماه . أماه . أماه . . . »

* * *

وموعدنا العدد التالى لتقديم نماذج أخرى من الشعر المصرى « المتخلف قرونا »

سيد قطب

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات (الرسالة) مجلدة بالأثمان الآتية :
السنة الأولى فى مجلد واحد ١٠٠ قرش ،
و ١٠٠ قرش عن كل سنة من السنوات :
الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة
والثامنة والتاسعة والعاشرة فى مجلدين . وذلك
عدا أجرة البريد وقدره خمسة قروش فى الداخل
وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشاً
فى الخارج عن كل مجلد .

ARCHIVE http://archivebeta.sakhrit.com